المنهج الاسلامى والمنهج الغربى

فى معرفة ماوراء الطبيعة

للدكتور عبد الحليم محمود

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

البحث وراء الإنسان قديم قدم الإنسان نفسه .

وما من شك أن اليونان ليسوا هم البادئين به .

فكتاب « الفيدا » الهندى كان موجوداً قبل أن تنشأ الفلسفة اليونانية وأبحاث قدماء المصريين فيما وراء الطبيعة كانت موجودة قبل أن تنشأ الفلسفة اليونانية ، ومما يروى فى ذلك أن أفلاطون حضر إلى مصر ، واتصل بكهنة جامعة عين شمس ، وأخذ يدرس معهم مسائل ما وراء الطبيعة.

ويروى بعض المؤرخين للديانات ، مثل الأستاذ « شورا » صاحب كتاب : « كبار الملهمين » .

إن أفلاطون لم يكد يرتفع إلى المستوى الذى بلغته الدراسة بين كهنة جامعة عين شمس ، وكان يود بجذع الأنف ، أن يطيل إقامته بينهم ليصل إلى منتهى المدى الذى بلغته أفهامهم فى الإلهيات ، ولكن ظروفاً سياسية اضطرته إلى مغادرة مصر ،

والمنهج القديم ، سواء فى الهند أو فى مصر ، لم يكن البحث العقلى ، وإنما كان : أستلهام الإشراق .

ورأى القدماء : أن البصيرة ، أو الالهام ، أو المعرفة الوصية ، هى الطريق الموهب إلى اختراق الحجب ورفع النقاب عن عالم ماوراء الطبيعة .

وهذا المنهج يرتكز على الخصوص ، على تصفية تبدأ بالتوبة الصحيحة ، والاتجاه إلى الله تعالى اتجاهاً خالصاً ، وتأخذ فى السمو والترقى ، إلى أن يصبح الشخص أو يكاد ، روحاً

خالصة ، أو قبساً من نور الله تعالى .

وحينئذ تتصل الروح بالملأ الأعلى ، فترى مالا عين رأت ، وتسمع مالا أذن سمعت ، ويخطر على قلبها ما لايخطر على قلوب البشر .

وكان القدماء فى الهند وفى مصر ، يرون أنهم بصدد تجربة مثلها ، فيما وراء الطبيعة ، كمثل التجربة الحيه فى المحسوسات .

وإذا كانت موضوعات المعرفة مختلفة ، فمن الطبيعى أن تختلف مناهج المعرفة ، وأن تتعدد بحسب الموضوعات ، حتى يلائم المنهج الموضوع .

وتطرق منهج البصيرة فى الإلهيات ، من الشرق إلى الفلسفة اليونانية ، فكانت « الأورفية » وكانت « الفيثاغورية » وكانت « الأفلاطونية »

ومن المعروف أن هذه المدارس كانت لها تعاليم خاصة سرية للمريدين ، وهم ذوو الاستعداد البصيرى الخاص من نبهاء التلاميذ وكانت هذه التعاليم تقوم — أول ماتقوم — على تصفية النفس ، وعلى نوع من النسك المؤهل لهذه التصفية .

ولكن الفلسفة اليونانية ، وإن وجد فيها التيار الإشراقى ، فقد وجد بجواره جنباً إلى جنب ، التيار العقلى الذى بدأ بالطبيعيين الأول ، وازدهر كل الازدهار ، على يد أرسطو ، الذى خالف أستاذه ، وحكم العقل فى كل شىء ، وألقى إليه زمام المقاليد .

وانتصر المذهب العقلى انتصاراً باهراً ، حتى طغى على غيره فترة طويلة من الزمن ، حتى جاءت الأفلاطونية الحديثة ، فردت إلى المذهب الإشراقى اعتباره ، على يد أفلاطين المصرى ، الذى يقال : إنه اتصل بالسماء أربع مرات .

وتأرجحت العصور الوسطى الأوروبية بين مذهب أرسطو ومذهب أفلاطون ، وكانت مذبذبة بين هذا وذاك ، فلم تنتج شيئاً ذا قيمة ، لا من الوجهة العقلية ، ولا من الوجهة الإشراقية .

حتى إذا كان البعث ، وكانت النهضة الأوروبية الحديثة ، اتجهت أوروبا اتجاهاً لا لبس فيه ، إلى المنهج العقلى فى الإلهيات .

ولكن هذا المنهج إن أدى إلى شىء ، فإنما يؤدى إلى الاختلاف .

فمن الواضح أن لكل إنسان عقله الخاص ، المتأثر ببيئته وثقافته

وطبيعته الخاصة، وليس أدل على ذلك من هذا الاختلاف والتضارب بين المذاهب الفلسفية العلقية .

وإننا لنجد فى الواقع مذاهب فلسفية عقلية بصدد من نبغوا فى العالم من الفلاسفة .

ومن الملاحظ : أنه لا يخلو رأى من الآراء فى مذهب يخلو من الاعتراض ، ولا يوجد مذهب يخلو من الفجوات ، أو من النقص ، بل لا يوجد مذهب عقلى أو رأى عقلى لا ينقض . سواء فى ذلك المذاهب العقلية القديمة ، والمذاهب العقلية الحديثة، وسواء عزيت هذه المذاهب إلى أرسطو أبى الفلسفة العقلية ، فى القديم أم عزيت إلى ديكارت أبى الفلسفة الحديثة العقلية .

لم تنتج المذاهب العقلية ، إذن ، اتفاقاً فى الإلهيات ، ولم توحد الاختلاف ، بل كانت هى فى نفسها مبعث تفرقة واضطراب وبلبلة ، ثم إنها أدت إلى عكس ما تريد .

فقد كان هدفها الأصيل إثبات عالم ما وراء الطبيعة ، ولكن النتيجة التى أشاعتها فى النفوس ، كانت الشك فى هذا العالم عند كثيرين .

ولقد سخر فولتير بهذا العالم وبهذه الفلسفة سخرية لاذعة ، ولم يكن فولتير أول الساخرين ولا آخرهم، ولقد مثل أناتول فرانس هذه السخرية فى أقوى صورها وسجلها فى مناسبات لا تعد ، ومن قوله :

إن الباحث فيما وراء الطبيعة — وهذا جدير بالتأمل — لا يملك من الخامات اللازمة لتكوين مذهبه الفلسفى إلا ذلك الضرب من صراخ القردة ونباح الكلاب ، الذى هذبت مخارجه ونبراته ، فغدت كلمات وألفاظاً ، وإن ما يسميه هذا العالم بحثاً عميقاً وطريقة عليا للتفكير ، ليس فى الواقع إلا تنسيقاً آلياً تحكمياً لألفاظ كانت فيما مضى ترتفع وسط الغابات البدائية ، فتعبر عن الخوف ، أو الجوع ، أو الحب ، ثم ألبسها الناس شيئاً فشيئاً ، معان مجردة وليس لها من التجريد إلا كونها فقدت حدتها الأولى وأصبحت فاترة لا قوة فيها . لكن لا تراعوا فهذه الصرخات الصغيرة المتتابعة ، التى تتكون منها كتب الفلسفة لن تتمكن بعد أن ضعفت وانطفأت ، من أن تأتى إلينا بمعلومات زائدة عن هذا العالم ، فتجعلنا غير قادرين على الحياة فيه .

ويقول فى موضع آخر :

إن مذهبا كمذهب كانت أو هجل : لا يختلف فى جوهره عن هذه الألعاب من الورق التى تقيمها السيدات، تمضية للوقت وعونا على إزالة سأم الحياة . وتلاحظ هنا أن أنا قول فرنسى يذكر سببا لفشل البحث العقلى . فيما وراء الطبيعة ، غير ما ذكرناه من أسباب ، وهو مشهـــور عند الإشراقيين :

إن عالم ما وراء الطبيعة الذى يبحث بعقله لا يملك الخامات اللازمة لبحثه ؛ إنه لا يستمدها من الحس ، فالحس لا صلة له بعالم ما وراء الطبيعة ولا يستمدها من العقل ، لأن العقل ، لا يعمل إلا مرتكزا على المحسوس ، وإذا جرد العقل من الخامات الأولية — المحسوسات — فإنه لا يقف على قدميه .

فشلت ، إذن ، المذاهب العقلية ، فيما وراء الطبيعة ، وفشلها صارخ ، يدعوا إلى الإشفاق والرثاء :

فهى متضاربة متعارضة ، مختلفة متناقضة ، تبعث الشك أكثر مما تدعو إلى اليقين. ورغم هذا الوضوع البديهى فإن هذه المذاهب لا تزال مستمرة فى منهجها الذى لا يتـــلاءم مع الموضوع .

إن عالم ما وراء الطبيعة غيب ومن الطبيعى أن يوجد له منهج يتلاءم معه ، وهذا المنهج حدده الإسلام ، كما حددته الأديان تحديدا لا لبس فيه :

إن معرفة ماوراء الطبيعة مصدرها الوحى ، والوحى ليس حسا ، وليس تفكيرا عقليا .

والناس كما ترى الأديان ، فريقان فريق شغلته ظروف عالم المادة ، ووسيلة هؤلاء إلى معرفة الإلهيات : إنما هى الخضوع لأهل الحق : للأنبياء والرسل ، لكلمةالله التى تشرح الغامض وتوضح الخفى . أما الفريق الثانى من بنى البشر ، فهم ذوو الحس المرهف والبصيره النفاذة ، الذين سموا بأنفسهم عن أن تكبلها المادة بأغلالهاوقيودها وهؤلاء يبدأون — أول ما يبدأون باتباع تعاليم الوحى المرسل ، ثم يأخذون فى التقوى والاتجاه إلى الله تعالى بكل جوارحهم ، حتى تصفوا نفوسهم وتشف شيئا فشيئا فتأخذ فى الترقى ، وتصل من منزلة روحية إلى منزلة أسمى منها ، حتى تنتهى بتوفيق الله تعالى إلى الاطمئنان التام وترى عالم الغيب رؤية روحية هى أوثق

وآكد من الرؤية البصرية . . .

وبما أنه لابد من البدء بأساس صحيح ، وبما أن هذا الأساس لا يتمثل إلا فى القرآن ، وهو النص الصحيح الذى صانه الله تعالى .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فإن الطريقة المثلى ، بل الطريقة الوحيدة للإطمئنان إلى هذا العالم الغيبى ، إنما تؤسس على القرآن .

والقرآن إذا ذكر الطريقة التجريبية كمنهج لمعرفة الطبيعة ، فإن يذكر الطريقة القلبية ، كمنهج لما وراء الطبيعة

وإذا كان القرآن يعد البصر مسئولا ويعد السمع مسئولا فى الطبيعة ، فإنه يعد القلب مسئولا فيما وراء الطبيعة: « إن السمع والبصر ، « الفؤاد كل أولائك كان عنه مسئولا »

يقول الدكتور إقبال :

ومجال الرياضة المفتوح سبيله للقلب : مجال حقيقى واقعى ، ككل ضرب من ضروب التوربة . وليس فى وصف رياضة القلب بأنها رياضة روحية أو صوفية أو أنها من خوارق الطبيعة ليس فى هذا ما يقلل من شأنها من حيث هى تجربة .

فكل تجربة فى نظر الإنسان البدائى كانت من خوارق الطبيعة ، ولقد أوحت إليه ضرورات الحياة الملحة أن يضع لها تفسيرا تولدت منه بالتدريج « الطبيعة » بالمعنى الذى اصطلحنا عليه لهذا اللفظ

إنها تجربة كالتجربة فى ميدان الطبيعة ، وهى مثلها منتجة ، بيد أن الفرق بين التجربة الإسلامية فى هذا المحيط ، والتجربة الإشرافية البحته : أن التجربة الإسلامية مؤسسة على أساس صحيح شرعى : القرآن .

ومن هنا كان أفلاطون ، يأسف أحيانا على أنه لم يتصل فى المعرفة بطريق أوثق وآكد ، أعنى بطريق الوحى والنبوة ، كما يذكر هو .

وهذه التجربة نظمها صوفية الإسلام تنظيما جديدا ، وأحكموها إحكاما بديعا .

فإلى الشاكين وإلى الحيارى نرسلها خالصة تنسموا الروحانية والتمسوها ففيض الله أوسع من أن تضيق بكم